في تقرير لـ لوس انجلوس تايمز

«جيب الملك جيبه!».. وكوميديا المأساة

ترجمة:عادل العامل

[كتب جيفري فليشمان لصحيفة لوس أنجلس تايمس من بغداد و بمعاونة أسامة رضا و سيف حميد ، كما تذكر الصحيفة ، تغطيةً لافتتاح مسرحية « جيب الملك ، جيبه » ، جاء فيها:]

رجلان صغيران يتجادلان على مسرح بحاجة للصيانة ، و قد انحجزا مثل ألكترونين فيَّ مدار ، بينما تندس ممثلةٌ بوجهٍ مكسوٍّ بالبودرة و أحمر الشفاه في الأجنحة قربَ مخرج مسرع يردد « إن شاء الله « في هاتف نقّال ، وجمهورٌ عرض المساء يتجمع في الردهة ، حيث تتبارى هبّات العطر مع رائحة البارود الخفيفة .

حرب في الشوارع ؛ حرب في الأجنحة ؛ هذا هو المسرح في بغداد .

فهناك انتحاريون يفجّرون أنفسهم ، و مركبات مدرعة تنسل أسفل الأزقة ، و جنود يتطلعون عبر أسلاك شائكة. لكن في المسرح نصف المضاء ، وسط مقاعدَ حريريةِ القماش متهرّئة ، يتصفح المخرج حيدر منعثر سطوراً من كوميديا ساخرة حول سياسيين يدردشون و ملك مفقود في بلد غريب عنيف ومفعم بالأمل مع هذا، يُعرَف بالعراق.

و قد افتُتحت مسرحية «جيب الملك ، جيبه» مؤخراً ، بعد ساعات من انفجارٍ سيارة ملغومة هزت المسرح الوطني ، مكرمشةً سقف غرفة الملابس و مسببةً الكدمات للممثلة زهرة بدن ، زوجة منعثر ، وممثلة أخرى في المسرحية. و قد أقلق منعثر ، الذي يقوم أيضاً بدور الملك ، أن يتسبب الانفجار في إبعاد الجمهور.غير أن الحشود تستمر في القدوم ، متحديةً بشجاعة انفجارات المدينة المتكررة والأفق الملوث بالدخان.

و يتحدث منعثر عن ذلك ، وهو رجل نحيف ذو لحية يخالطها الشيب و يتحرك بطريقة زئبقية كالشخصيات الكارتونية ، قائلاً : « إننا نعمل في وضع مستحيل. لكننا فقط لا نستطيع التوقف . فعلينا أن نعمل . يجب أن تبقى الستارة ترتفع . فقد بعنا كل تذاكر الليلة الأخرى . لقد تجاوز العراقيون حالة الخوف . و الحياة تعود . »

ويقول منعثر أن المسرحية هي الأولى التي يتم تقديمها بعد الغروب في المسرح الوطني منذ الغزو الأمريكي في عام ٢٠٠٣ ـ و هو وقت لم يكن أحد يجرؤ فيه على التجول خارج منطقته في ماضٍ ليس بالبعيد.

تصوّر المسرحية المكونة من فصلين بطريقة عروض الملاهي ، التي هي من تأليف علي حسين يظهر فيها سياسيون عراقيون باعتبارهم تافهين و فاسدين ومنفصلين عن الشعب الذي يحكمونه. و يُظهر المشرعون في احد المشاهد وهم جالسون في البرلمان يناقشون طبقة الأوزون ، و استيراد بذور الثوم ، وزيادة رواتبهم ـ أي شيء عدا كيفية إنهاء إراقة الدماء وإعادة بناء الدولة المحطمة. و يقترح أحد السياسيين (تماماً مثل نائب من الحياة الواقعية) نصب دولاب هوا ضخم « وبذلك يستطيع الناس أن يتبردوا في حرارة الصيف . »

ويضحك منعثر. إنه يُحب ذلك السطر.

إن مثل هذه المحاكاة التهكمية لم تكن ليحتملها النظام في زمن حكم صدَّام . يعرف هذا منعثر . فقد كان مديراً سابقاً لفرقة مسرحية تجريبية في التسعينيات ، و ألقيَ القبض عليه و سُجن أيام الدكتاتور. غير أن المسرحية الجديدة ، إضافةً للإصابات المتراجعة على امتداد البلد ، هي إشارة أخرى أن الحياة تتوسع إلى ما وراء جدران الانفجارات و الصلاة على الموتى . فالعنف ما يزال يضرب و بقسوة مفاجئة ، لكنه لا يحقق ما فعله في ما مضى.

يقول منعثر: « هناك أمل . لكننا ، نحن العراقيون ، نمر بمرحلة حرجة. هناك وطنية ، لكن مع قدْر من الفوضى.. نحن بحاجة لهذا التغيير ، أجل ، لكن المسألة هي إلى أين سيأخذنا هذا الوضع . إننا لا نريد أن يقول الناس < بارك الله في الأيام القديمة <. فقد كانت أسوأ الأيام ، و لا نريد أن يتصور العراقيون أنه كانوا في حالٍ أفضل من اليوم . هذا لا يمكن أن يحدث . »

ساعتان قبل وقت العرض . تتردد في المسرح أصداء أصوات تشبه ثرثرة عائلة تتمتم من غرف مختلفة في بيتٍ كبير. والفنيون يأخذون لهم غفوةً على أرائك قُرب نافذة حطمها الانفجار.

تنسل زهرة بدنٌ إلى داخل غرفة الملابس ، و تتحدث عن شكسبير والأعمال الكلاسيكية وعن القاهرة ، و إسبانيا ، و تونس ، تلك المسارح الأجنبية التي مثلت عليها منذ أن بدأت الحرب . و تقول : « كان التفجير مرعباً . لكننا يجب أن نفعل هذا حتى لو بقيَ منا ممثل واحد . يجب أن نعيد جماهير الحضور إلى المسرح. »

يتحرك رجل مستثار من إدارة المسرح نحو منعثر قائلاً : « هذا غبار ، غبار من البارحة . » ينظر إليه المخرج بالطريقة التي ينظر بها المرء إلى جَدّة مشوَّشة . يمسح الرجل يديه و يندفع مبتعداً ، و يختفي وراء الستائر و الثياب. و تنزلق المرأة ذات الوجه المبَوْدَر وراء الرجال الصغار ، منتظرةً كما يبدو سطراً ، أو ربما تهيّء نفسها . يُسكت منعثر هاتفه النقّال : كم مرة يمكن للواحد أن يهمس « إن شاء الله « في الأثير ؟

ويقول: « هذه أجرئ مسرحية في العراق. ستجعل السياسيين حسّاسين . تعرف ، إن دور الممثل لا يقلّ أهميةً عن دور السياسي . وزملائي الممثلين يخترقون الحواجز ليصنعوا الحياة . هذا أمرٌ مشرِّف. »

و يتلو سطراً آخر، حول عضو في البرلمان أكثر انشغالاً بمقدار قربه من مكيِّف الهواء من انشغاله بالاضطراب العنيف الذي يخرّب الوطن. و يضحك ، قائلاً: « لقد جاءت فكرة المسرحية قبل سنتين . لكن كل صفحة مكتوبة كنا نغيرها في اليوم التالي لأن شيئاً ما أكثر لامعقوليةً ، شيئاً أسوأ كان يجري في الحياة الواقعية في البلد. »

والفكرة أن رجلاً بسيطاً ، بائعاً جوّالاً لديه عربة ، هو الذي يُلهم الملك الغافل . فيقوم الرجل بتعريف الملك كيف نُعاش الحياة ، ما الحياة ليست في البرلمان أو القصور ، و إنما في الأزقة و على امتداد ضفاف دجلة . وعنوان المسرحية هو تعديل للمقطع الوطني القائل : «جيب الكأس ، جيبه « الذي تردّد في عام ٢٠٠٧ عندما فاز فريق كرة القدم العراقي ببطولة آسيا.

يقول منعثر : « و في نهاية العرض ، يكتشف الملك الفساد و يدرك لماذا لا تتحقق أحلام شعبه . و إذا لم يستطع ملكٌ أن يلبّي حاجات شعبه ، فعليه أن يتنازل ، يذهب إلى البيت و يظلّ هناك . »

و ينهض المخرج . فعليه أن يذهب.

« إن شاء الله ، كل شيء سيكون على ما يُرام.»

وتختلط الأقدام بعيداً عن خشبة المسرح. و يصحو الفنّيون. و يُستدعى ممثل بديل .

و في الخارج يفتش الحراس صناديق السيارات و الحقائب بحثاً عن قنابل . و يرافق نساء يرتدين الحجاب الأخضر و الذهبي رجالٌ بالبدلات المكويّة . و هناك ثرثرة ، الإحساس بكون الواحد في ظلام بارد ، والقيام بشيء جديد. وسيتفرجون علىً الملك يتلقّى درسه و يضّحكون على أمر ، لا يبدو مضحكاً هكذا في وضح النهار ، بعيداً عَن المسرح و الأزياء.

شكرا للديوانية الطيبة ولأبنائها الطيبين

علي عبد العال

«للديوانية كمأة نار في القلب»

كزار حنتوش

في رحلة شاقة، تُعد هي الأصعب في حياتي المليئة بالرحيل والترحال في أصقاع الأرض وجهاتها الأربع، على ما يقرب من الثلاثة عقود، حطَّ بيَّ الرحال في مدينة الديوانية العراقية، مسقط رأسي ورفعة حواسي. مدينتي الوادعة الطيبة التي احتفظت برونقها وأصالتها وجودة أخلاق قومها كسجادة «كاشان» من الطراز الأول. أستعير هذا التشبيه بهذا السجاد الفاخر بمحبة وفخر ومقاومة لغدر الأيام وشيخوخة الأعمار. المدن الطيبة التي ينبض في جوانحها الحب والألفة والطيبة هي مدن لا تموت.

وجدتُ مدينتي مهدمة، لكنها ليست ميتة. وجدتُ الديوانية مخربة المدارس وخربة البناء ومخربة الطرقات، ومخربة الأحياء، لكنها، وعلى الرغم من جميع هذه الجراح، كانت حية تنبض بقلوب ناسها الطيبين المحبين للحياة والواثقين من المستقبل الإنساني الجميل مهما مرت وتمر بهم من ويلات وعاصفات الزمان.

الديوانية الوادعة؛ مرابض طفولتي البريئة، وساحات لعبي مع أقراني، ومدارس تعليمي الأولى؛ مبنى«الروضة» للأطفال في صوب الشامية بين بيت «المتصرف» والمكتبة العامة على الشط. ثم مدرسة «الزعيم» الابتدائية في السوق الكبير وهي بيت كان يملكه السيد علي صاحب أكبر المواكب الحسينية في المدينة وقد هُجر إلى إيران أبان الحكم البعثي البائد. والتي تحولت إلى مدرسة «العروبة» أيام عبد السلام عارف، ثم تم إلغائها لتنتقل إلى «مدرسة التهذيب» الواقعة الآن في نهاية شارع «العلاوي» حيث سوق الخضار وعلوة السمك. حيث وقفت هناك بصحبة صديقي القديم العزيز وأخي الكبير الرياضي الشهير «حسين شطاوي» لكي ألتقط صورة بكامرتي الخاصة لهذا المبنى الرث المتهالك والمحطم والوسخ والبشع الذي كان مدرستي الابتدائية في منتصف الستينيات من القرن الماضي. كان بناءً زاهيا ومتينا ورائعا آنذاك. هو الآن عبارة عن ركام وحطام من الطابوق القديم الذي أتخذ لونه الطيني الوسخ والجدران القبيحة والزجاج المحطم. مع ذلك يوجد في هذا المبنى العشرات من الأطفال الملتحقين بالدوام المدرسي. منعني «حارس» يرتدي بزة الشرطة الوطنية من التصوير وكأنني أجنبي يصور موقعا عسكريا للسلاح النووي أيام النظام السابق. غضبت من الشرطي المسكين الذي تذرع بالتعليمات الصارمة من سيادة «المدير». سحبني حسين شطاوي من ذراعي وهو يقول لي:

.«أمشي علي.. الشغلة ما تسوى».

تتعالى أصوات بائعو الخضار الطازجة وهم يعلنوا أسعار بضائعهم الغضة الطازجة التي بودي التهامها مباشرة. فجل أبيض يانع ورشاد غض وبصل أخضر ريان مبلل بالماء. أسماك طازجة صغيرة «أبو زريدة»وكبيرة «بني وشبوط وكطان». كوارع غنم وبقر ورؤوس لأغنام معدة للطبخ. سوق مزدهر بالبضائع والناس والقاذورات. أدخلني حسين شطاوي إلى محل تسجيلات صوتية لصديق «من ذاك الصوب» أي صوب الشامية يعمل في هذا الصوب الكبير. قال شطاوي ردا على سؤال ملهوف طرحته عليه منذ اللقاء الأول معه قبل يومين: «أين أشوف صلاح حطاب»؟

.هنا يأتي صلاح حطاب.

قبلني صاحب المحل وسماني باسمي الصريح، لكنني لم أتذكر اسمه في الواقع إلا بعد التوضيح.

.متى يأتي الأستاذ صلاح حطاب؟

.يجب أن يكون هنا الآن.

طيب سوف ننتظر.

فتح الموبايل وأتصل بصلاح حطاب:

.علي بن عبد العال «الكحلي» هنا في المحل، تعال بسرعة.

ناولني التلفون لكي أسمع صراخا حبيبا وحميما من صديق فرقني عنه الزمان ثلاثين عاما.

××

الديوانية هي بمثابة أمي العظيمة، الوالدة العلوية الموسوية الطاهرة الزكية بنت الأطهار خدّام حضرة سيدنا الحسين وأخيه العباس رضوان الله وسلامه عليهما. السيدة الشريفة العفيفة زهرة بنت السيد زكي السيد هاشم السيد طالب الموسوي الشريف. وهي من بيوتات مدينة كربلاء، حفظها الله ورعاها بنعمته وأفضاله. بمعنى من المعاني كان الشعور الأقوى وأنا في طريق العودة إلى الرحم هو اللقاء بأمي التي فُجعت، كما باقي الأمهات العراقيات، بفقدان أبنائها قتلا وتشريدا في أصقاع الأرض. أنا أبنها الذكر الأول وهي تُكنى بـ « العلوية أم علي». فارقتها ولم أبلغ الثانية والعشرين من العمر عام ١٩٧٩ . ما يقرب الثلاثين عاما. أي مصاب أليم تحتمله الأم الواحد بعد الآخر؟ ومن بعد ذلك تتلاحق المصائب والأحزان فتفقد أخي هاشم الشاب المهندس الجميل في حادث مشبوه، ومن ثم تفقد أبناءها نعيم ومحمد وثلاث أخوات في الانتفاضة الشعبانية حيث الهجير في صحراء رفحاء السعودية ومن ثم المنافي الإسكندنافية الثلجية البعيدة.

المعادلة هي:»أعود إلى أمي يعني أن أعود إلى الديوانية؛ أن أعود إلى الديوانية يعني العودة إلى العراق». الرحم الأول هو البطن الأول، هو المدينة والهواء الأول، هو الوطن الأول برمته.

تصلي جالسة، تركع جالسة، تحف بها الأدعية وكتاب الله العزيز القرآن الكريم. شبه مقعدة لا تقوى على النهوض إلا بمساعدة أخي وزوجته بنت أخيها الشهيد السيد عباس السيد زكي الموسوي، رئيس قسم الحسابات في معمل تعليب كربلاء الذي تمت تصفيته عام ١٩٩١ في الانتفاضة الشعبانية. رأيت أمي الحبيبة؛ جذري الأول وطينتي الأولى في هذه الدنيا، بينما مات أبي منذ سنوات من دون أن يراني أو أراه.

الديوانية بالنسبة لي هي الأصدقاء والناس؛ فضلا عن بيتي الأول ومكان ولادتي. كيف سأخبر عن الأصدقاء وعن الأحباب ممن رحلوا وممن هم على قيد الحياة. الذين هم على قيد الحياة أتمنى لهم العمر المديد. كائنات بشرية عجيبة تحتفظ بجوهرها النقي الصافي كما يحتفظ معدن الذهب بأصله في الزمان والمكان.

في المقام الثاني الديوانية هي الأصدقاء؛ أي أصدقاء؟ إنهم خيرة الناس في هذه البلدة الطيبة الوديعة التي تتسم بالحلم والتواضع أكثر مما تتسم بالبغض والكراهية. تلك المساحة الصغيرة من العراق التي تفهم أكثر مما تجهل. وتستوعب أكثر مما تضجر، وتستقبل أكثر مما تطرد. وعندما مات الشاعر النافر، صديقي الأقرب قبل الرحيل للمنفى المجهول، والأول من الناحية الأدبية والثقافية، انتابني إحساس غريب أن نصف ذكرياتي عن الديوانية مات مع كزار حنتوش. أعني بذلك موت نصف ذكرياتي العزيزة بموته. وإذا أضيف إلى الفجيعة فجيعة أخرى وهي موت الشاعر الشعبي الكبير صاحب الضويري الذي كان يقودنا كفتيان شباب بوهجه الشعري الموجع والساطع، فأنني بدأت بالشعور بانطفاء شمعة الديوانية على مدى تلك المسافات البعيدة المرهقة التواصل، بل المعدومة التواصل حفاظا على أرواح الناس من أن يصيبهم مكروه بسبب علاقتهم مع معارضين للسلطة. لكن الشاعر الجميل الشامخ علي الشيباني هو الشاهد الكبير الذي على قيد الحياة، ليطل الله بعمره الجميل. وهو أحد أعمدة هذه المدينة الأدبية والشعرية والثقافية بشكل عام. علي الشيباني على قيد الحياة هذا يعني الكثير بالنسبة لي، ويمنحني الأمل اللذيذ بعبق المدينة وتاريخي الشخصي فيها. إذاً كان البحث الأول عن الشاعر علي الشيباني. فاجأته باللقاء الأول وكدنا نطير نحو السماء بالعناق الحار الذي أوصلنا إلى شقة عازف العود الجميل، صاحب محل تسجيلات صوتية، «عماد العادلي» حيث أمضينا ليلة جملية تحت حراسة غير ضرورية من الدبابات الأمريكية المتمترسة رغما عنا في شوارع ليل الديوانية الهادئ الجميل.

«يعيش الحزب الشيوعي العراقي» هتف الشاعر علي الشيباني بوجه فتيان غرباء مدججين بالسلاح والخوذ والملابس العسكرية الحديثة للحلف الأطلسي، يمتطون دبابة كالحة اللون أمام مبنى الأورزدي المهجور وسط المدينة. كان علي الشيباني ينتقم من ماض «وطني» لم يمنحه الحرية للجهر بمثل هذا الهتاف الذي لا يفهمه هؤلاء الغرباء. حمدا لله أنهم لم يطلقوا علينا النار كوننا بدونا، والحمد لله، في حالة من النشوة والسكر بحيث لا تدعو للقلق العسكري.

الشاعر جميل علي الشيباني شاعرٌ ثوري بالفطرة، وثوري بالحكمة، وثوري بالكلمة. قال لي:

. «علي.. الديوانية بخير؛ والعراق بخير بعد سقوط الدكتاتورية البشعة المتخلفة». ذكرّني بأيام الخوف والرعب في نهاية السبعينيات عندما كان هاربا نضيفه في بيتنا المؤجر في منطقة الوزيرية ببغداد، وكان الجميع ملاحقين ومطاردين من الأجهزة الأمنية المسعورة وقد صدرت لهم الأوامر بتصفية الشيوعيين. تم القبض على الشاعر علي الشيباني مطلع عام ١٩٧٩ وتعّرض للتعذيب الكبير ولم يغادر الوطن. وهو سجين سياسي سابق في سجن الحلة الذي جمعه مع الشاعر الكبير مظفر النواب الذي تنبأ بموهبة علي الشيباني الشعرية وأطلق عليه آنذاك: «خليفتي في الشعر علي الشيباني». كان علي الشيباني قد كتب قصيدته الشهيرة «خسارة» التي يقول في مطلعها:

لو درى البلبل بواجيه غنه
جا يبلع لسانه ويموت

مقهى «الراية»

أسعى إلى أصدقائي في هذه المدينة الصغيرة كما يسعى العطشان للماء في صحراء شاسعة. الوقت ضيق ومواعيد السفر قريبة ويجب عليّ رؤية الأحباء الأعزاء على روحي وقلبي.

قادني الشاعر علي الشيباني عبر موعد في مقهى «الراية» الواقع بمحاذاة نهر الديوانية النحيل، الذي وجدته وقد أزداد نحولا، وتحولت ضفتاه الخطرتان سابقا اللتان كنا نخاف السباحة بين جرفيها إلى مساحة رملية تقف عليها كراسي بلاستيكية بيض معتمة اللون من كثرة الوسخ وطاولات من ذات الفصيلة البلاستكية الطارئة بين بقايا قصبات البردي القليلة المشرئبة بحزنها العظيم، التي تقاوم البقاء حتى الرمق الأخير وسط هذا الجحود البشري الغبي الكبير من مسؤولي البلدية والمواطنين على السواء.

في هذا المقهى الجميل تسنى لي اللقاء بالأعزاء أبناء الديوانية من المثقفين الجدد والقدامى. التقيت بالأديب الفاضل ثامر الحاج أمين، وبالشاعر الجميل عباس الموسوي، وبعد ذلك بالشاعر محمد الفرطوسي رئيس اتحاد الأدباء في المحافظة، وثلة من المسرحيين والفنانين المتوقدين بالرغبة للعطاء والأثمار، لا أنسى منهم الشاب ميثم الشيباني وطاقمه الفني الجميل الخاص بقناة الحرة عراق.

قال الأديب ثامر الحاج أمين:

. أقترح عمل أمسية ثقافية لابن الديوانية البار علي عبد العال.

أيده مباشرة الشاعر عباس الموسوي مراسل جريدة الصباح.

حصلوا على تأييد من الشاعر محمد الفرطوسي رئيس اتحاد أدباء الديوانية وكتبوا اللافتات الجميلة التي وضعوها في الأماكن العامة من المدينة كالمقاهي المعروفة وبوابة السوق الكبير.

نهاية المطاف كنتُ أسأل عن صديق الدراسة والرفقة في الحزب المهندس اللامع «كريم هاتف».

أخذنا صديقنا الجميل الأديب ثامر الحاج أمين إلى مكتب «المقاول» الشاب الحيوي المجتهد كريم هاتف. مكتب هذا الرجل الطموح الذكي المتجدد يقع بالضبط خلف دكان أبي القديم. أعرف المكان جيدا جدا بالرغم من جميع سنين الغياب. الذي أفرحني أن صديقي وزميلي في الدراسة كريم هاتف على مستوى من الذكاء والشعور بالمسؤولية بحيث يستطيع تقديم الكثير من الخدمات الواقعية للمدينة. أرجو أن يوفقه الله بمسعاه الطيب ونياته الكريمة. وأتمنى أن لا يوفق الله أحدا يخون الديوانية في سبيل مصالحه الشخصية، لأن في ذلك خيانة للوطن بالدرجة الأولى.

××

قلتُ لأخي الصغير، الذي هو رجل الآن وله ثلاثة أطفال يحميهم الرب، قلت له:

. «ماجد أنت تعرف أصدقائي القدامى جيدا؛ أطلب منك العثور عليهم وأخبارهم أنني في الديوانية».

قال أخي بعفوية مطلقة:

. «أجلس في كهوة «مشكوف» السابق، وهو مقابل بيتنا بالضبط . كل جماعتك يأتون هناك. أخي كان يخبرني كما لو أن أصدقائي يعيشون في السند والهند وليس في هذه المدينة الصغيرة. «ناظم جاري» أول وأقرب شخص من بيتنا ومن هذا المقهى البسيط الذي لم يعد أسمه «كهوة مشكوف». تغير المكان قليلا، لكنه ثابت في مخيلتي البعيدة. بالقياس بـ ذاكرتي يجب أن يقع المقهى «الكهوة» أمام بيتنا بالضبط بعد قطع الشارع الرئيس العام.

قال لي أخي:

. «لا؛ كانت الكهوة في هذا المكان. وأشار إلى بضعة أمتار قليلة من الدكاكين الحديثة والمطاعم الجديدة.»

المهم بالنسبة لي هو «الكهوة « التي كانت تجمعنا في السابق كوننا رياضيين وأدباء وصعاليك متسكعين لا شغل لهم ولا عمل، لكن أحباء فقط.

أنا من الزمرة الرياضية في الديوانية من الأساس؛ جل أصدقائي من الرياضيين المشهورين وغير المشهورين. الذين يكبرونني بالعمر والتجربة هم أساتذتي المخضرمين صالح شعبان وعبد الحسين عمران وحسن محمد علي وعادل لاوي. فضلا عن الأساتذة الأقدم أمثال الأفاضل كريم حمادة ختلان أبو سعد الخزعلي الطيب الذكر، والأستاذ الموسيقي الرياضي الرفيع المستوى إبراهيم علي السالم. كل واحد من هؤلاء الأساتذة الكرام علمني درسا في الحياة أنا أدين لهم فيه. لا أنسى الأستاذ الكبير المعلم الجميل عباس عبد الكريم، ذلك الرياضي المثقف وحامي الهدف المتميز الذي علمنا الشعر والفن ومتابعة المشاهير من الرياضيين العالميين شفاها وكأنه يعيش حالة كونية تلم بجميع الأحداث في العالم. أقبّل ايدي هذه النخبة العظيمة من أبناء الديوانية الكبار، وأقول لهم أن الزمان يحفظهم كما يحفظ الدرر الثمينة في هذه الحياة.

سعيتُ، وأقولها صدقا للقاء باللاعب الدولي الكبير أبن مدينتي والرمز الذي أحبه واحترمه كثيرا اللاعب الدولي «فالح عبد حاجم». طلبت من أخي وأقاربي أن ألتقي بفالح عبد حاجم إن كان يتذكرني أو لا يتذكرني. نصبوا لي فخا أولئك الأشرار الطيبين. أخبروا فالح عبد حاجم برغبتي اللقاء به كشخص «مجهول»، في الوقت الذي أعدوا لي مقلبا ذكياً كونني سوف لا أتعرف على شخص فالح عبد حاجم. المخطط مرسوم جيدا؛ لكنني في الطريق رأيت فالح وهو يمشي في شارع العلاوي وسط الديوانية وحيداً؛ وقفت وصحت بصوت مجنون:

. «فالح عبد حاجم.. أنا في الطريق إليك.. هل تريد أن تخدعني؟».

كان الجميع يراهن أنني سوف لا أتعرف على فالح عبد حاجم وهو لن يتعرف عليّ. لكننا تعرفنا على بعضنا جيدا.

إذا يتسنى لي القول والأخبار عن الناس والأشخاص الكبار في المعنى وفي الحقيقية، يقع الإنسان الكبير واللاعب الدولي الكبير فالح عبد حاجم في موقع الصف الأول من المهارة والأخلاق والطبع الرزين. هذا الشخص هو إنسان «عالمي» بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معنى.

أصدقائي وأحبتي ورفاق عمري الجميل؛ «محمد جاسم» اللاعب الموهوب كأجمل حامي هدف في منتخب الديوانية لكرة القدم، والموهوب أيضا في لعبة كرة السلة بذات الدرجة من العطاء والذكاء. «عبدالله جاسم» صاحب أجمل الأرقام القياسية في ركضة الـ ٤٠٠ متر على صعيد العراق، شديد البأس مستقيم القامة وجميل الخلق. «قاسم لفتة» لاعب كرة قدم دفاع وملاكم وخريج كلية التربية الرياضية، أستاذ في التربية الرياضية وأطيب الطيبين بالحسن والأخلاق والشهامة الديوانية. «جبوري هليل» لاعب كرة قدم ذكي ومبدع، وهو فنان كروي ماهر لم تمكنه الظروف لكي يصبح لاعبا دوليا وهو يستحق ذلك. «قاسم علي أكبر» أخو المرحوم الجميل والكبير «مهدي علي أكبر» لاعب المنتخب العراقي لكرة السلة. «كريم صبر» و «سعد دبة» وحسن شطاوي لاعب كرة القدم الماهر والأخ الأصغر لحسين شطاوي، والصديق العزيز اللاعب الفنان صلاح حطاب الذين ساعدوني على اللقاء بأحبتي ووجداني وتاريخ عمري الماضي. كلهم الآن أساتذة أفاضل كل في مجال اختصاصه العلمي والأدبي والرياضي.

يجب أن لا أنسى اللاعب الدولي الكبير في كرة السلة «ميران عطية» أو «ميران أبو دخن» رحمة الله عليه من شخص جميل وجليل. ويبقى لي أن أحيي بصدقٍ وحب الرياضي البارز في سماء الديوانيةً المشّرق، الرياضي الكبير جودت كاظم عبود آل شنين. له التحية والاحترام. جودت شنين الذي يحتفظ بعباس منصور صاحب الأرقام المميزة في مسافة ١٥٠٠ متر، كصديق يومي يعمل في مكتبه.

قال جودت الحاج شنّين:

. «كل الرياضيين في الديوانية هم في رقبتي».

تحيتي وسلامي لمدينتي الجميلة الطيبة التي تقودني أحلامي اليومية للعودة إليها والعيش بين أبنائها الطيبين من أهلي وأصحابي ورفاقي وأصدقائي القدامى؛ للعيش في كنف أمي الحبيبة.

باولو كويلو القلق والخيميائي المريض

إبراهيم سبتي

هل تكون الطفولة منبعا ينهل منه الكاتب كلما أراد ان يكتب رواية مثلاً؟ وهل تكون اسقاطاتها وآلامها منطقة اشتغال اغلب الروائيين ومنهم البرازيلي باولو كويلو؟

في سن السابعة ، قرر والد باولو كويلو ادخال ابنه المتمرد على تعاليم الاسرة ، الى مصحة نفسية. وبذا يكون باولو قد تعرف على هذا العالم العجيب في سن مبكرة . ولكن الوالد المتعجرف الذي يريد كما يريد كل الآباء لابنائهم، ان يكون مهندسا لا كاتبا ، يدخله مرات عديدة بصورة تعسفية الى المصحات النفسية والعقلية لكي يدفن رغبة الابن الى الابد . فكانت فترة الستينيات عصيبة في حياته بين التمرد على الأب من جهة، والتمرد على الدراسة ورغبة الوالد من جهة اخرى.. ويكون الولد العاق قد تنقل بين الدراسة والمسرح وبين التمثيل حتى وصل الى كتابة الأغنيات التي اشتهر بها في بداية السبعينيات في فترة نزوع الشباب وخاصة في الغرب الى التحرر المطلق من السائد. وبعد ثلاثين عاما من خروجه من المصحة يكتب روايته «فيرونيكا تقرر أن تموت»،وظهرت الرواية في البرازيل عام ١٩٩٨ . وبعد عام اصدر البرلمان البرازيلي قرارا يقضي بمنع الادخال التعسفي الى المصحات النفسية وكانت الاغلبية قد وافقت على اقراره، حياة باولو كويلو المتقلبة والمتناقضة، اكدت رغبتة في الامتثال لرغبات كانت تمور في نفسه، وجاءت متوافقة مع انزياح الرغبات التي اطاح بها بجرأة وهي القادمة من أب متزمت. كانت آثار المصحات تحفر عقل كويلو وتغور في اعماق السؤال الكبير.. لماذا يحدث كل هذا ؟

وبجدارة وضع كويلو هذا السؤال أمام مشروعه الروائي المدهش ، حين يجيب في كل رواية عليه بشيء من الحيرة وبشيء من الخيال المتفرد الذي تجاوز عقدة الخيال الذي لايجارى عند الروائيين من الذين تخلدت رواياتهم وصارت رموزا للادب العالمي امثال جويس وميلفل وبروست ودوستوفيسكي وغيرهم . فكان عليه ان يتجاوز العقدة الكونية التي تنص على عدم اختراق هؤلاء وانهم وجدوا خارقين لا شبيه لهم في كل الأزمنة وان وجد غيرهم كثير .. بهذا التقول اراد ان يكون تحديا من نوع آخر، من نوع الكتابة السردية المخلصة لذاتها او كما يصطلح عليها كتابة الذات المطلقة.. هذه الكتابة التي كانت واضحة في الخيميائي وهي مجسدة بالمقدمة التي كتبها كويلو التي اخذها عن اسطورة اغريقية معروفة.. التجسيد الذي حصل بين نرسيس (نرجس) وبين ذاته عند غرقه في البحيرة ، كان مقصودا في متن الرواية وان اختلفت الرؤيا قليلا.. فالاسطورة تتحدث عن شاب يموت غرقا في مناخ ذاتي بحت والرواية وقعت في مناخ ذاتي بحت مضافا اليها السؤال المطروح لماذا حصل كل هذا .. يطرح كويلو روايته بشكل حكاية بسيطة على المتلقي. الا انها واسعة الدلالات والمعاني والاثر يلبسها المفاهيم الروحية التي يبحث عنها في كل كتاباته. انه ينزع الى تقليد الاساطير بل توظيف الاسطورة احيانا لخلق عالم فريد من الخلاصات مرة، والاندحارات والشر التي تقف حائلا دون السعادة مرات اخرى هكذا هو كويلو يستمتع بتاريخه الجنوني في بعض اعماله ويستمتع بالاساطير المتداخلة في اعمال أخرى، فيحيك عالما مختلطا بين الاسطورة وبين الجنون الذي يستنطقه واقعا لخبرته الطويلة معه.. فيرى العالم من زاوية لايراها الا هو.. ويجد ان الخير والشر متلازمان في حياة كل شخوصه. ففي روايته (على نهر بييدرا هناك جلست فبكيت) وهي رحلة خاصة يقوم بها لاستكشاف اعماق واغوار ومهادنة النفس البشرية، اضافة الى وضع الشخوص امام تناقضات هائلة للظفر بمصير مقبول.. تكون رحلة ذاتية لاظهار المختبئ من الرغبات والاسرار والمشاعر والسعادات.. والكتاب عبارة عن توظيف لاسطورة تقول أن كل ما يقع في مياه هذا النهر، من أوراق شجر وحشرات وعيدان وطيور، يستحيل حصى في مجراه، ويورد في الرواية (كم أود أن أنتزع قلبي من صدري وأرمي به في مياهه الجارية.. فلا يبقى، إذ ذاك، ألم أو ندم أو ذكريات على نهر بييدرا هناك جلست فبكيت).

وفي روايته (فيرونيكا تقرر أن تموت) يطلق كويلو سؤاله ، ماذا أفعل في حياتي هذه؟ ولماذا أستمر في العيش؟.

وافاد كويلو من تاريخه في المصحات العقلية والنفسية في معالجة حالة الشخصية الرئيسة فيرونيكا الصبية الجميلة التي تقرر ان تموت منتحرة بتناول حبوب منومة لكنها تستفيق في مصحة للامراض العقلية .. تعيش لكن قلبها يموت الى الابد .. جاء توظيف كويلو عن دراية وخبرة لم ينسها في صباه عندما ادخل بعنف عدة مرات للمصحات فصار تاريخا مهماً حفر في عقله الباطن . ومن الطبيعي ان تكون اسقاطاته واضحة على الشخوص في رواياته .

وفي روايته (حاج كومبوستيلا) وهي بحث في الروحانيات واستقراء لبواطن الانسان الخفية في استخدام القوة يكون التصارع واضحا بين قوتين.. قوة الايمان بالقوة المأخوذة من الرموز الروحية وقوة البشر العاديين الذين يخذلون دوما. تحكي الرواية تجربة باولوفي أثناء رحلة الحج واكتشافه أن العجيب والغريب يحدث يوميًا في حياة البشر العاديين.. أما روايته الاهم فهي الخيميائي وهي اسطرة للأشياء وتحويلها الى سرد مدهش، عبر ثيمة واحدة اقتصرت على مبدأ المبادلة بين الاشياء.. الرخيصة بالغالية. تحمل الرواية كنوزا من المفاهيم ودلالات اللغة الحسية والمعرفية من خلال توجه البشر نحو الحصول على رغباتهم والارادة القوية النابعة من وعي المعرفة بفعل الاشياء المبحوث عنها. اظهرت الرواية فلسفة إنسان مستوحد بحث وتقصى واجهد نفسه للحصول عن معنى الحياة وإكسيرها. (سانتياغو) الراعي البسيط يبحث في رحلة قاسية عن حلمه وهو كنز مدفون قرب اهرام مصر وفي طريقه للعثور على كنزه الحلم، تقع أحداث كثيرة تكاد تمنعه من الوصول الى حلمه، إلى أن يجد الوسيلة التي تساعده على تجاوز هذه العقبة. يُسلب مرتين ، يعمل في احد المتاجر، يرافق رجلاً إنكليزياً، يبحث عن أسطورته الشخصية، يشهد حروباً تدور رحاها بين القبائل، إلى أن يلتقي الخيميائي عارف الأسرار العظيمة الذي يحثه على المضي نحو كنزه المدفون قرب الاهرام. وفي الوقت نفسه يلتقي فاطمة، فيعتمل في داخله صراع بين البقاء إلى جانب حبيبته، ومتابعة الرحلة بحثاً عن الكنز. ويكتب باولو كويلو في مقدمته (تناول الخيميائي بيده كتاباً، كان قد أحضره أحد أفراد القافلة، لم يكن للكتاب غلاف، ولكنه استطاع على الرغم من ذلك التعرف على اسم الكاتب " أوسكار وايلد " وهو يقلب صفحاته، وقع نظره على قصة كانت تتحدث عن نرجس. لاشك أن الخيميائي يعرف أسطورة «نرجس» هذا الشاب الوسيم الذي يذهب كل يوم ليتأمل بهائه المتميز على صفحة ماء البحيرة.

كان متباهياً للغاية بصورته، لدرجة أنه سقط ذات يوم في البحيرة، وغرق فيها، في المكان الذي سقط فيه، نبتت وردة سميت باسمه وردة النرجس. وهي تلخص الثيمة الاساسية للرواية.

يحاول كويلو ان يؤثر في مفاهيم البشر حول الرغبات وسبل تحقيقها.. انه يقول ان كل ارادة يجب ان يصاحبها اصرار اكيد على تحمل العقبات والآلام والمحن..انها رواية النفس المعذبة والتي استحضرها الكاتب من حياته التي كانت عصية على غيره ودفع ثمنا باهظا للوقوف ثانية بوجه الانكسارات بعد مخاضات